جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

دراسات أولية : المرحلة الثالثة

المادة : الأدب الأندلسي

عنوان المحاضرة:(أشهر شعراء الأندلس :الشاعر ابن دراج القسطلي)

أستاذ المادة: أ. د فائزة رضا شاهين

١٤٤٥هـ **٢٠٢٤م**

أشهر شعراء الاندلس

الشاعر ابن دراج القسطلي (متنبي الاندلس٣٤٧ -٤٢١هـ)

حياته:

أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج، ويكنى بأبي عمر، ويلقب بالقسطلي نسبة إلى مدينة قسطلة، وهي بلدة تابعة تقع لجيان ، ولمكانة اسرة الشاعر نسبت المدينة اليهم (قسطلة دراج). وتنتمي اسرته الى قبيلة صنهاجة البربرية ولكن ابن دراج رغم انتسابه اليهم لم يذكر نسبه في شعره، ولم يمدح ملوك بني زيري الصنهاجيين في غرناطة ، ولذلك فخرت الأندلس به ولقب بمتنبي الاندلس ولد سنة ٣٤٧هـ في عهد عبد الرحمن الناصر ،وعاش طفولته وصباه في عهد الحكم المستنصر، الذي بلغت الاندلس في عصره.عصرها الذهبي . وقد ادرك شاعرنا نصيبه العلمي في حلقات العلم في جيان، وان تذوقه المبكر الادب كان يحمله على متابعة ماكانت قرطبة تموج به من اخبار علمائها وادباتها وان يشق طريقة بينهم ليكون أبرز شعراء الاندلس لم يصل الينا شيء من قصائده الأولى، إذ ان اقدم قصيدة وصلت الينا تمثل مرحلة نضجه الشعري ، وهي تقصل بمدح المنصور العامري سنة ٣٨٢ هـ، وقد عارض بها قصيدة صاعد البغدادي ، ومطلعها:

أضاء لها فجر النَّهى فنهاها عن الدنف المُضنى بحرُ هواها

هي قصيدة طويلة ، جاءت في ديوانه مستهلة وهي أول ما انشد في مدح المنصور والقصيدة تجري على تقاليد الشعر العربي، حيث يستهلها بمقدمة غزلية ثم ينتقل الى وصف الرحلة وقد ترك خلفه افراد اسرته قائلاً:

والله عزمي يوم ودعت نحوهنفوساً شجاني بينها وشجاها

ورية خدر كالجمان دموعها عزيز على قلبي شطوط نواها

وبنت ثمان مايزال يروعني على الناي تذكاري خفوق حشاها

ويصور نزاع أسرته اليه وشدة تعلقه بهم، وتستغرق هذه المقدمة جلَّ ابيات القصيدة لينتهي إلى مدح المنصور، ويبدو أن القصيدة كانت لها أصداء لدى شعراء العصر ممن قربهم المنصور بن أبي عامر فساءت به الظنون، واتهموه بانه منتحل ، ولا يستحق ان يثبت اسمه في ديوان العطاء، وقد اختبره المنصور فبرع وبرز وثبت في ديوان الشعراء. وفي ذلك يقول

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا وجود كفيك للحظ الذي انقلـــــــبا

من بعد ما اضرم الواشون جاحمة كانت ضلوعي واحشائي لها حطبا

ودسسوا لي في مثنى حبائلـــــــهم شنعاء بت بها حرّ ان مكتبـــا

وفيها يشير إلى التهمة التي وجهت اليه، ويرد فيها على اقوال الوشاة وهو في ذلك لا يختلف عن كبار الشعراء امثال امرىء القيس والاعشى ويتضمن ديوانه عدداً كبيراً من قصائده في مدح المنصور ومن بعده ولده المظفر، ومما يذكر ان المنصور أمره ان بعارض قصيدة أبي نؤاس في مدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر وهي القصيدة التي أولها:

أجارة بيتينا ابوك غيور و ميسور ما يرجى لديك عسيرُ

وكان المنصور شديد الاعجاب بهذه القصيدة، اقترح على صاعد البغدادي أن يعارضها فأبي اجلالاً لأبي نواس ولصعوبة الأمر، ولكن المنصور الح عليه فجاءه في اليوم الثاني فانشده

جذال الشرى اني بكُنَّ بصير طو تكن عنّي خلسةٌ وقتيرُ

وأجرى المنصور الاختبار نفسه على ابن دراج فنظم قصديته وأولها:

دعي عزمات المستضامُ تسيرُ فتنجد في عرض الفلا وتغورُ

وقد بلغت هذه القصيدة شهرة واسعة في المشرق والمغرب، وهي تمثل بواكير نزعة المعارضة في الاندلس.وتحل الفتنة بقرطبة وتوقف شاعرية ابن دراج وينتقل الى بلاط ملوك سرقسطة فيمدح المنذر بن يحيى سنة ٤٠٨ هـ ويمضي ١٠ سنوات في كنف المنذر وولده يحيى يستعيد نفسه الشعري ، فيؤرخ انتصاراتهما وابرز المناسبات في بلاطهما ، ولكنه لم يلبث أن يغادر إلى بلاط مجاهد العامري في دانية فيلبث سنوات حياته الأخيرة اذ يدركه الاجل عام ٤٢١هـ

ديوانه وابرز موضوعاته الشعرية:

ظلت معلوماتنا في شعر ابن دراج محدودة حتى عام ١٩٦١م حيث صدرت الطبعة الأولى من ديوانه وقد شار المحقق الدكتور محمود علي مكي في مقدمة الديوان الى انه اول ديوان ينشر لشاعر اندلسي متقدم وكانت الاحكام الأدبية حول الشاعر وشعره تعتمد على التقول والاختبارات والآراء التي قام بها مؤرخو الأدب الاندلسي وإذ اردنا الحديث عن موضوعاته الشعرية فالمديح هو الركن الأساسي في موضوعاته وان جل قصائده تركزت في مدح ملوك الاندلس وفي مقدمتهم محمد بن عامر ومنذر بن يحيى وعدد من الملوك والوزراء والرؤساء والقضاة اما القصائد الأخرى فتتناول موضوعات أخرى كوصف الطبيعة والرثاء وهي لا تتجاوز عشرين قصيدة ونلاحظ ان قصيدة المديح كانت قصيدة منسجمة مع روح العصر وظروف الشاعر وهي تمثل الممدوح في صورة رائعة يجسد من خلالها معالم القيم الخلقية والملامح الشخصية الاسلامية ومن هذه القيم التي ذكرها في قصائده توقير حماة الدين وخليفة المسلمين والدعوة الى الجهاد في سبيل الله وإقامة اركان الدين وانتصار معاني الايمان على الشرك والظلالة ونفي العقائد الباطلة وتمجيد البطولة في الأشخاص الممدوحين وتمثلهم من بقادة المسلمين ومن الخطأ الظن ان ملكة الشاعر قد قصرت عن النظم في موضوعات الشعر الأخرى ، كما حصل لعدد من شعراء العرب فتأخرت مراتبهم عن مراتب الفحول وكان حقهم التقدم ومن الدارسين المحدثين مثل الدكتور احمد هيكل

يرى (انه من الظلم لابن دراج وشعره ان تحسب تلك القصائد مدحا خالصا وان يسقط من ديوانه ما فيه موضوعات أخرى ربما كانت اهم فيه) .

لم يخرج ابن دراج على تقاليد القصيدة العربية التي تتصل ببنائها وتناسب اجزائها واعتدال اقسامها من استهلال بالتسيب ووصف الرحلة الى الممدوح ثم المديح ، ففى وصفه الرحلة الى ممدوحه في هذا الوصف . يذكر مايعانيه من بعد الشقة وما يتصل به من تعلق الأسرة وتشبث الابناء بأبيهم الذي يضطره الحال الى ضروب الشحط والنوى ووصف مواقف الوداع وفراق الأهل، وهو وصف مثود الغربة والقلق والضياع فمن وتلك مشوب بمعاني قوله

ولما تدانت للوداع وقد هفا　　بصبري منها أنةٌ وزفيرُ

تناشدني عهد المودة والهدى　　في المهد مبغوم النداء صغير

عني بمرجوع الخطاب ولفظهُ　　بموقع اهواء النفوس خبيرُ

وكذلك توسعه في وصف الرحلة إلى ممدوحه أو أسفاره اليه في البر والبحر، فمن ذلك يصف رحلته في البحر الى ممدوحه خيران العامري حاكم سبتة عام ٤٠٧هـ

اليك شحناً الفلك تهوي كانها　　وقد ذغرت عن مغرب الشمس غربان

على لجج خُضر أذا هبت الصبا　　ترامى بنا ثبير وثهـــــــــــــــــــــــــلان

وكذلك رحلته الى ممدوحه منذر بن يحيى النجيبي ورحلة للبحر كثيرا ما تتردد في شعره حتى نستطيع ان نقول واحد من الشعراء الذين ترك للبحر اثر في شعرهم اما وصفه الرحلة البرية فلا يخلو ديوانه منها فمن ذلك قوله معارضاً أبا نواس

ولو شاهدتني والصواخد تلنظي　　على ورقراق السراب يروق

اسلط حر الهاجرات إذا سطا　　على حر وجهي والأصيل هجير

واستنشق النكباء وهي بوازخُ　　واستوطىء الرمضاء وهي تفوز

كما يتناول ابن دراج موضوعاً لصيفاً بالمديح و هو وصف المعارك البرية والبحرية ، وقد تناولها في قصائد كثيرة، منها ماجاء في وصف واقعة خاضها ابن أبي عامر في القضاء على ثورة زيري بن عطية حاكم المغرب ومنها قوله

تحمل منه البحر بحراً من القَنا　　يروع بها امواجه ويهول

بكل معالاة الشراع كأنـــــــــها　　وقد حملت أشد الحقائق غيل

اذا سابقت شاو الرياح تخيلت خيولاً مدى فرسانهن خيول

اراقم تقري نافع السم مالها بما حملت دون الغواة مقبل

٣- شهرته وخصائصه الشعرية

يعد ابن دراج أحد المتقدمين بين شعراء عصره وبابها به مؤرخو الأدب ونقاده من مشارقة واندلسيين هذا ابو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ) صاحب (يتيمة الدهر) يقول :((كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصفع الشام وهو من الشعراء الفحول))، ابن حزم (٤٥٦ه) يقول فيه ((لو قلت انه لم يكن بالأندلس اشهرمن ابن دراج لم أبُعد))، وقال ايضا ((لو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا حمد بن دراج لما تأخر عن شا وحبيب والمتنبي)) ، ويتصل الاعجاب به بعد حوالي قرنين من وفاته حتى يشهد الشقندي المتوفي سنة (٦٢٩ ه) في معرض المفاخرة بأدباء الاندلس ويذكر فضائلها بما للشاعر من براعة وتفوق في لائيته التي عارض بها ابا نؤاس .

اما النقاد المحدثون فقد افردوا له صفحات وافية في دراساتهم اذ يرى فيها احمد ضيف شاعرا فطريا وهو مقلد بارع وجاء أحمد امين فيتهمه بالتقليد بدافع الرغبة في تاكيد الذات الاندلسية وقد رد عليهم الدكتور أحمد هيكل وجاء بطريقة طريفة ومحاورة علمية،وقد تناول اشعاره بالدراسة الدقيقة، ثم انتقل إلى أبرز سماته الفنية، ووجدها تتمثل في خمس الون المحلي، والشعور الأسري، والتحليل المعنوي، والوصف النفسي والنضج الثقافي . وقد نعته به الشاعرة (شاعر الحب الاسري وشاعر الاسرة).

اما الدكتور احسان عباس فقد وجد سمات شعره تتمثل في ست وهي : ميله إلى المقايسة في قصائده أين زعته وتعلقه بالصورة الواحدة والحاحه على جوانبها حد الملل. وسيطرة الصور الحزينة على شعره ويعلل ذلك بانه نوع من التعويض لانه كان عاجزاً عن المشاركة في الحرب، واستخدامه أساليب فنون البديع من طباق وجناس، وميله إلى المطابقات في الفاظه واكثاره من الاشارات التاريخية على طريقة أبي تمام وميله إلى المعاني المعقدة بحيث تصبح عسيرة الحل تتطلب صبراً في اعماقها، ويبدو ذلك في استعارته المستخدمة في قصائده .

وقد اصدر بعض المستشرقين ومنهم (غارسيا غومس) رأيه في الشاعر ووجد لغته صعبة معقدة عسيرة على الفهم، وشبهه بالشاعر الاسباني (جنجرة) ،ولا ننكر أن لغة الشاعر جزلة الالفاظ متينة التراكيب لكنها ليست معقدة. يتميز ابن دراج بصفتين رئيسيتين تطغيان على معظم قصائده وهما:سعة ثقافته الشعرية : استطاع الشاعر أن يوظف ثقافته الاسلامية في شعره خير توظيف، وقد استمدها من منابع الثقافة العربية الاسلامية كالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف والامثال العربية، والتاريخ الإسلامي، وديوان شعر العربي. ومما يؤكد عنايته بلغة شعره الى درجة التنقيح والتجويد ما روي ان المنصور بن ابي عامر لما فتح شنت ياقب طلب منه بانشاء كتب الفتح فقال : لا يتم لي ذلك في اقل من يومين او ثلاثة مما يدل على انه كان معروفاً بالتنقيح والتجويد، ومن نماذج شعره وهو يخاطب المنصور

إن امرأ القيس في بعض لمتهم وفي يديه لواءالشعر إن ركبا

والشعر قد أسر الأعشى وقيده خبراً وقد قيل والاعشى اذا شربا

وصفوه الله من انصار دعوته ومن تنقى لنصر الدين وانتخبا

حيث اعترى فخر اسماعيل في سلفي هود وحيث تلاقت خندق وسبا

ان ديوانه كان مرأة صادقة لأحداث عصره، فقد تفاعل مع تلك الأحداث، وصوّر لنا ابعادها السياسية، فقد كان ديوانه تاريخاً دقيقاً لغزوات ممدوحه المنصور بن أبي عامر وهي اثنتان وخمسون غزوة في ممالك اسبانيا، وقسم من شعره في تصوير احداث ممدوحه المنذر بن يحيى التجيبي بعد فتنة قرطبة ، ومن هذه الأحداث قيام العلاقات الدبلوماسية بين المنذر بن يحيى وبين (ابن ميرو) وكذلك عقد المصاهرات بين ابن فرنلند وابن ريموند). فمن ذلك قصيدته التي يخاطب فيها المنذر بعد ايابه من الغزوة التي عقد فيها تلك المصاهرة قوله:

عمرت بطول بقاءك الأعمار وجرت برفعة قدرك الأقدار

بهرت فهن على (ابن يحيى) في الوغى نور وعلى (ابن شنج)نار

ودنا ابن ردمير يزلزل خطوة امل تقسم نفسه وحذار

ولقبل ايقن فرنلند ما له إلا اليك من الحمام فرار